منذ مدة ليست بالقصيرة، ومصطلح "ثورة المفاصل" يتردد على منصات التواصل الاجتماعي. وقد شئتُ في الفترة الأخيرة، غير مرة، عن رأيي في ثورة المفاصل، ولأهمية الموضوع (من وجهة نظري) آثرت أن يكون الرد مقالا؛ كي يكون أوفى، وأرجو أن يكون كذلك.

"ثورة المفاصل"، أطلقها ودعا إليها المهندس خالد السرتي، المصري المقيم في أمريكا، وهو رجل سيني، صاحب همة وجَد، لم يتوقف (خلال العقد المنصرم) عن توعية الشعب المصري بحقيقة ما يُفعل به وبمصر، على يد سلطة الانقلاب الذي قاده وزير الدفاع الجنرال ياسر جلال، على أول رئيس منتخب في تاريخ مصر، الشهيد محمد مرسي (طيب الله ثراه).

ما وجه الشبه بين السرتي والمقاوم محمد علي؟

في الحقيقة، وللإنصاف، لا وجه للمقارنة بين الرجلين، إذ لا تصح المقارنة بين الرجلين من أي وجه! فالسرتي ابن 25 يناير (2011)، أما محمد علي فهو ابن النظام العاق، المنشق الذي بنى سمعته ورسم صورته من خلال الكشف عن بعض أوجه فساد النظام، من موقع شريك النظام، والمقاوم المنفذ لبعض المشاريع التي تم تكليفه بها، من قبل إدارة المشروعات الهندسية التابعة للقوات المسلحة.

السرتي صاحب منطوق، يقوم بدور توعوي كبير، بالحوار الجاد أحيانا، الساخر أحيانا أخرى. أما المقاوم محمد علي، فلا أظنه يعرف معنى كلمة "الوعي" على وجهها الصحيح ابتداء؛ فيوم أن تكلم عن شكل السلطة التي يتصورها، قال كلاما مثيرا للسخرية، أبان عن جهله بأجديات السياسة، وتُظم الحُكم، ولا غرابة في ذلك، فالرجل يعتبر الفتح الإسلامي لمصر احتلالا، ولا يعرف الفرق بين "الهوية" و"الهاوية!"

وجهة نظر السرتي في "حدث" 25 يناير

يرى السرتي أن المصريين لم يقوموا بثورة في 25 يناير ٢٠١١، وإنما "اتعمل بهم ثورة" حسب تعبيره، لصالح الجيش الذي قرر الانقلاب على مبارك، أو على وجه الدقة، طُلب منه الانقلاب على مبارك؛ لمعارضته التنازل عن جزء من سيناء في إطار صفقة القرن، وقد بات ذلك من الحقائق المؤكدة!

من جانبي، أتفق تماما مع السرتي، في تصويره هذا عن حدث 25 يناير. وللتوضيح (للجيل الجديد).. فإن قطاعا معتبرا من الشعب المصري استجاب لدعوة الخروج يوم 25 يناير؛ بهدف الضغط على مبارك، لتحسين الأحوال المعيشية، رافعين شعار "عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية"، وليس للإطاحة به.

وكان هذا الخروج غير المسبوق هو ما يطمح إليه أو يطمع به الجيش؛ لإجبار مبارك على التنازل عن السلطة للجيش وليس للشعب! حسب البيان المقتضب الذي ألقاه اللواء عمر سليمان (نائب الرئيس وقتئذ) ولم تتجاوز مدته دقيقة ونصف الدقيقة.

ثورة المفاصل

يبدو أن السرتي قد استفاد، بدرجة كبيرة، من الخطايا والكوارث والعثرات التي حالت دون إسقاط الانقلاب حتى اليوم، رغم هشاشة نظام الانقلاب، وسخط عموم الشعب عليه!

فهو لم يحدد يوما للخروج، على غرار ما حدث مرارا، خلال السنوات السابقة، بل يرى "عبثية" التجمع في الميادين، التي ثبت (بالتجربة) أنها في لحظة معينة تكون بمثابة "مصادد" للمتظاهرين، من جانب قوات الأمن، ومن ثم الدخول في نوبة جديدة من الإحباط واليأس، وفقدان الأمل في التغيير.

السرتي يعني بالمفاصل: "البنى الأولية للنظام" التي يتمثل فيها وجود السلطة، بدءا من القرية. إذ يعتقد بأن تعدد بؤر الخروج، على مساحة جغرافية كبيرة في مختلف أنحاء البلاد، وسيطرة أبناء كل بقعة على بنى النظام الأولية فيها، سيشل قدرة أمن النظام، بل والجيش، على تفريق هذه الجموع في بقع كثيرة، في وقت واحد. ففي مصر نحو خمسة آلاف قرية، عدا عواصم المحافظات، والمدن التي تضم كل منها (إداريا) مجموعة من القرى، وتسمى "مراكز". فمن أين لنظام الانقلاب العدد الكافي لإجهاض هذا الخروج الواسع؟ أمر آخر، ألا وهو صعوبة تعامل ممثلي سلطة الانقلاب في القرى (خفر، عمدة، نقاط شرطة) مع أهل القرية، فممثلو السلطة هؤلاء هم أبناء المتظاهرين.

وحسب اعتقاد السرتي، فإن أبناء كل بقعة قادرين على إفرار قيادة لهم تقوم بالتواصل مع قيادات البقع الأخرى؛ للتنسيق، وإفرار قيادة "للثورة".

وللوصول إلى لحظة "الخروج الكبير"، لا بد من ممارسة ما يسميه السرتي "قياس الجاهزية"، وهي فعاليات يشارك فيها المؤمنون بفكرة "ثورة المفاصل"، على نحو "آمن" لا يعرض أحدا للخطر؛ بمعنى: إذا كانت الفعالية "إطفاء النور" مثلا، فإن ذلك ممكن، ولا يتطلب الخروج إلى الشارع، ويمكن قياسه بنسبة البيوت والشقق المظلمة، إلى البيوت والشقق المضيئة، فإذا غلب الظلام على الإضاءة، كان ذلك مؤشرا إيجابيا يمهد للخروج الكبير.

الفكرة بين النظرية والتطبيق

السرتي مهندس، وعلم الهندسة يترعب على قمة هرم المنطق، وعند مناقشة فكرة السرتي تجدها "منطقية" جدا من الناحية النظرية. أما "عمليا"، وهو الأهم، فالأمر ليس من السهولة بمكان، وتبدو الفكرة "فانتازيا" بينها وبين الواقع بعد المشرق عن المغرب.. وهنا، وأؤكد وألفت الانتباه إلى أن التفكير في إسقاط نظام مستبد أرعن، لا يتورع عن استخدام القوة المميته ضد معارضيهِ العُزَل من شعبه، أو طرد محتل همجي غاشم، متفوق عددا وعمدة على نفر من المقاومين الذين لا يملكون إلا أسلحة بسيطة، هو تفكير "فانتازي" بامتياز. إلا أن إصرار "الحالمين" أو "المجانين" إن شئت، تجسّد مرارا في الواقع وتحقق!

التغيير ممكن، وإن بدا حلما أو "فانتازيا". أما المآلات، فلا يمكن التحكم بها، وهذا هو التحدي الحقيقي والكبير الذي قد ينجح فيه دعاة التغيير أو يفشلون

من أشهر الأمثلة، سقوط الملكية العتيدة في فرنسا، وسقوط الإمبراطورية العظمية في روسيا، وسقوط "ملك الملوك" في إيران الشاهية وكلها أعقبها جريان أنهار من الدماء، وهذا ما يجب التحوط منه فالدماء (في ديننا) معصومة إلا بحقها. إذن، فالتغيير ممكن، وإن بدا حلما أو "فانتازيا". أما المآلات، فلا يمكن التحكم بها، وهذا هو التحدي الحقيقي والكبير الذي قد ينجح فيه دعاة التغيير أو يفشلون لكن إسقاط الظالمين فريضة شرعية، وضرورة إنسانية ومنطقية أيضا، والسعي إلى تحقيقها برهان على تمسك الإنسان بكرامته التي منحها الله إياه، ولا يحق لحاكم متجبر في الأرض، مشوّه الفطرة، محارب لربه، أن يسلبها منه بأي ذريعة. فعلى دعاة التغيير (وقد باتوا كُثرا) في بلاد العرب، وعلى الجماهير التي صنعت التغيير (إذا وقع) أن يدركوا أنهم المسؤولون أولا وأخيرا عن هذه المآلات، حسنة كانت أو سيئة فبقدر نُضجهم وتجردهم، بقدر ما سيكون المستقبل مشرقا وبقدر أنانيتهم ورعونتهم سيكون المستقبل مظلما، وربما أشد سوادا من الماضي الذي عاشوه تحت حكم النظام الذي خرجوا عليه وأسقطوه.